ابن العديم وتآليفه

للأستاذ محمد كرد علي

كان كمال الدين عمر العقيلي الحلبي رئيس الشام (٦٦٦ هـ) من بيت علم . تولى خمسة من أهله منصب قاضي القضاة بحلب ، وأكثرهم على جانب من الأدب والفضل ، وكلهم مذكان الاسلام يحفظ القرآن . وكان كمال الدين هذا محدثاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً محموداً . درس وأفتى وصنف ، وترسل عن الملوك ، وكان رأساً في الخط المنسوب لا سيما النسخ والحواشي « يقرأ الخط العقد كأنه يقرأ من حفظه . وأما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقالة لأبي عبد الله بن مقالة ، وبدر ذو كمال ، عند علي بن هلال » « وهو أكتب من كل من تقدمه بعد ابن البواب » ترجم له ياقوت في معجم الأدباء عرض لتراجم أهله ، وكان ياقوت اجتمع بكمال الدين ، وأخذ عنه وبالغ في مدحه ، وقال إن من أجداده بني أبي جرادة ، وكان بناء العديم يُعرفون بهذا اللقب وقد كتب بخطه ثلاث خزائن من الكتب : واحدة لنفسه وخزانتين لابنيه ، لكل منهما خزانة ل ياقوت وأنشدني لنفسه وبإملائه بحلب في ذي الحجة سنة ٦١٩ وكان كمال الدين شاباً) :

ومع هذا لا يزال الضباب البهم يناديني ويسألني سؤاله ... نا أنادي :

لمحة من النور الذي عندك ضحاه الدائم الذي لا يغيب يا هادي كب وصاحب القافلة ... النور الذي تهتدي به ظلمات الدنيا ضواؤها إلى مسالكها ومسارتها ومواقعها ... النور الذي طيت به كل شيء خلقه ثم به هديته ...

النور الذي اهتدت به كل ذرة في بناء العالم وكل خلية في سمه وكل قوة من قواه إلى مكانها وعملها ... ثم إيعازه بطرف مالك إلى المحبوء وراء الزمان والمكان والأجرام والشواخص لكثافات ... ثم قدرة على الانفصال عن الركب لأشهده كله هو يسير . . !

(الاسكندرية) عبد المنعم مهنوف

وسحرة الأجفان معسولة اللمى
مراشفها تهدي الشفاء من الظما

حنت لي قومي حاجبيها وفوقت إلى كبدي من مقلة العين أسهما
فواعجبا من ريقها وهو طاهر حلال وقد أضحى عليَّ محرما
فإن كان خمراً أين للخمر لونه ولذته مع أنني لم أذقهما
لها منزل في ربع قلبي محله مصون به مذ أوطنته لها حمى
جرى حبها مجرى حياتي فخالطت محبتها روحي ولحمي والدما
تقول لي كم ترتضي العيش أنكدا وتقنع أن تضحى صحيحاً مسلما
فسر في بلاد الله واطلب الغنى تفز منجداً إن شئت أو شئت متهما
فقلت لها إن الذي خلق الورى تكفل لي بالرزق منا وأنعما
ومن ضري أن كنت رب فضائل وعلم عزيز النفس حراً معظما
إذا خدمت كفاي مالاً وثروة وقد صنت نفسي أن أذل وأحرما
وما بتذلي في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما

ونظن البيت الأخير مقحما إقحاماً في هذه القصيدة ، لأنه بيت من قصيدة مشهورة لعلي بن عبد العزيز القاضي من أهل القرن الخمس التي يقول في مطلعها :

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

قال ياقوت بعد إيراد هذه القصيدة : ولا يظن الناظر في هذه الأبيات أن قائلها فقير وقير ، فإن الأمر بعكس ذلك لأنه ، والله يحوطه ، رب ضياع واسعة ، وأملاك جمة ، ونعمة كثيرة ، وعبيد وإماء وخيل ، ودواب ، وملابس فاخرة وثياب . ومن ذلك أنه بعد موت أبيه اشترى داراً كانت لأجداده قديماً بثلاثين ألف درهم ؛ ولكن نفسه واسعة ، وهمته عالية ، والرغبات في الدنيا بالنسبة إلى الراغبين ، والشهوة لها على قدر الطالبين . قال ياقوت : وكان إذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين ، ويجلس فيها ويكتب ، ورحل إلى العراق ومصر والحجاز

ويقول ياقوت أيضاً إن كمال الدين صنف مع هذه السن كتباً منها كتاب « الدراري في ذكر الدراري » ، جمعه للملك الظاهر غازي ، وقدمه إليه يوم ولد ولده العزيز الذي هو اليوم سلطان حلب . وكتاب « ضوء الصباح في الحث على السماح » ، صنفه للملك الأشرف ، وكان قد سير من حرّان بطلبه ، فانه لما وقف على خطه اشتهى أن يراه فقدم عليه فأحسن إليه وأكرمه ، وخلع عليه وشرفه . وكتاب «الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة»

وأنا سألته جمعه فجمعه لي وكتبه في نحو أسبوع وهو عشرة كراريس. وكتاب في الخط وعلومه، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه، وما جاء فيه من الحديث والحكم، وهو إلى وقتي هذا لم يتم. كتاب «تاريخ حلب» في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب، وشاع ذكره في البلاد، وعرف خطه بين الحاضر والباد، فتهاداه الملوك. ومن كتبه تبريد حرارة الأكباد، في الصبر على فقد الأولاد. وكتاب «دفع التجرى عن أبي العلاء المعرى» وكتاب «التذكرة» وهو في أجزاء في دار الكتب المصرية أولها الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر، وفي هذه الأجزاء قصائد جميلة لأناس من معاصريه ورسائل منثورة وغيرها (راجع ما كتبناه في هذه التذكرة في المجلد السابع من مجلة المقتبس ص ٨١١). ومما نقله أبيات للسابق أبي اليمن محمد بن الخضر المعرى وهي:

حلب معهد الصبا والتصابي فسقاها الوسميُّ ثم الوليّ
موطني بعد موطني فكأني لفراها بحبها البحتري

إلى أن قال:

فلديها كل الفنون وفيها ما اشتهاه الشرعيُّ والفلسفيُّ
غير أني أرى الأطايب شزراً وحليف الإفلاس عنها قصيّ

وكان في حلب في ذاك الزمن جلة من العلماء كما قال الشاعر، بل إن من قراها ما كان أشبه بدار علم مثل معرة النعمان وكفر طاب، وكفر طاب اليوم مزرعة خربة

ومما اقتبسه في هذه التذكرة أبيات لسنان صاحب الدعوة

لو كنت تعلم كل ما علم الورى طراً لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب أن من يهوى خلاف هواك ليس بعالم
فاستحي إن الحق أصبح ظاهراً عما تقول وأنت شبه النائم

وسنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الدعوة دعوة الاسماعيلية، ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية. وهو الذي كتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب جواب كتاب هدده فيه، على ما نقل ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان، وافتتحه بقوله:

ياذا الذي بقراع السيف هددنا لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بإصبعه يكفيه ماقد تلاقى منه إصبعه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين.

وقد كتب مرة أخرى:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفينا حديدها

وفي خزانة المجمع العلمي العربي بدمشق نسخة من كتاب دفع الظلم والتجرى، وسماه هناك «كتاب الانصاف والتحرى في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعرى» وهو مخروم من آخره نقص منه بيت القصيد وهو تبرئة المعرى من التعطيل، وكان أعداؤه ينحلونه أبياتاً ليصححوا دعواهم عليه انحلال العقيدة. وفي هذا الكتاب فصول جميلة في نشأة المعرى وعماه وشيوخه ورحلته إلى بغداد وقوة حافظته. وقد استفدنا منه أنه كان عند أبي العلاء أربعة كتاب في جرايته وجارية يكتبون عنه ما يكتب إلى الناس، وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف، وكتب له جماعة من المعرة أخصهم أنسباؤه ومنهم ابن أخيه، وكان ملازماً لخدمته ويكتب له تصانيفه، ويكتب عنه الإجازة والسماع عمن يسمع منه ويستجيزه، وكتب تصانيفه بخطه حتى يقع بخطه من المصنف الواحد نسختان وأكثر. واستفدنا منه أن المعرى زار دار العلم ببغداد لا دار العلم في طرابلس، ولم يكن في طرابلس دار علم، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة. وأبو العلاء مات قبل جلال الملك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة

وأهم مصنفات ابن العديم على ما يظهر تاريخ زبدة الحلب في تاريخ حلب، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية، أخذت بالتصوير الشمسي من إحدى خزائن الأستانة وهي في ثلاث مجلدات. بدأ كتابه بجغرافية حلب والبحيرات التي في أعمالها وما فيها من الجبال وما جاء في صحة تربة حلب وهوائها واعتدال خراجها وصفة مائها، وما ورد من الكتابة القديمة على الأحجار بحلب وعملها. وعقد فصلا في بيان أن معاوية ومن كان معه بصفين لم يخرجوا عن الإيمان بقتال علي عليه السلام، وفصلا في ذكر ما جاء في الكف عن الخوض في حديث صفين. وذكر الرواندان وعين زربة وبهسنى والمرزبان والشمروبكا

وعرسوس ، وفصلا فى ذكر فضائل الشام ، وحلب وفويق نهر حلب وما ورد فيه وذكر الغراب ومخرجه ومعرفة من حفره ، وذكر جيحان نهر المصيصة وسيحان نهر أذنة والعاصى نهر أنطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس ، وذكر البحر الشامى ويعرف ببحر الروم . وأشار إلى مايتعلق بحلب وأعمالها من الملاحم وأمارات الساعة . وعقد فصلا فيمن نزل من قبائل العرب بأعمال حلب ومن كان قبلهم فى سالف الحقب ، وهو من أهم فصول كتابه . وذكر من نزل فى أعمال حلب من حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وعقد باباً فى فتح حلب وقنسرين وما تقررت عليه أحكامها ، ونقل شرط عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على أهل قنسرين وهو على الغنى ثمانية وأربعون، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المدقع اثنا عشر يؤديها صغار — والغالب أنها دراهم والدرهم على الأكثر عشر الدينار ، ويقدر الدينار بنحو نصف جنيه مصرى ذهباً — وعلى مناظرة النازل بينهم وبين المسلمين وألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان فى بلدهم ولا يضربوا بالناقوس إلا فى جوف بيعة ، ولا يرفعوا صوتهم بالقراءة ، ولا يرفعوا صليباً إلا فى كنيسة ، وأن يؤخذ منهم القبلى من الكنائس للمساجد ، وأن يُقْروا ضيوف المسلمين ثلاثاً ، وعلى ألا يكون بين ظهرانى المسلمين الخنازير ، وعلى أن يحسنوا للمسلمين ولا يغشوهم ولا يمالؤا عليهم عدواً ، وأن يحملوا لأجل المسلمين من رستاق إلى رستاق ، وألا يلبسوا السلاح ولا يحملوه إلى العدو ، ولا يدلوا على عورات المسلمين ، فمن وفى فى المسلمون له ، ومنعوه مما يمنعون به نساءهم وأبناءهم ، ومن انتهك شيئاً من ذلك حل دمه وماله وسباه أهله وبرئت الذمة منه ؛ وكتب بذلك كتاباً . وهذا الكتاب فيما نذكر لم يرد بهذا النص فى كتب الفتوح والبلدان المشهورة

ومما روى ابن العديم قال : وأخبرنا قاضى العسكر أبو الوليد محمد بن يوسف بن الخفر قال : كانت حلب من أكثر المدائن شجراً ففى شجرها وقوع الخلف بين سيف الدولة بن حمدان وبين الإخشيد أبى بكر محمد بن طغج ، فإن الإخشيد كان ينزل على حلب ويحاصرها ويقطع شجرها ، فإذا أخذها وصعد إلى مصر عاد سيف الدولة وفعل بها مثل ذلك ، وتكرر ذلك منهما حتى فنى ما بها من الشجر . واتفق بعد ذلك نزول الروم على حلب وأخذ المدينة فى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ففنى شجر الشربين لذلك ، وكانت الوقعة بين سيف الدولة وبين الدمستق فى هذه السنة فى سفح جبل بانقوسا وسميت وقعة بانقوسا . وقال فى سيف الدولة إنه كان يتشيع فقيل على أهل حلب التشيع لذلك .

ومما ذكره جبل برصايا وقال إنه جبل عال شامخ شمالى عزاز يشرف على بلد عزاز وكورة الأريتق (الأرتيق) وتحتهما قرية يقال لها كفر شيفال وقفها نور الدين محمد بن زنكى على مصالح المسلمين . وهذا الجبل بين عزاز وقورس . وذكر ما فى حلب من اعزازات وما فيها وفى أعمالها من العجائب والخواص والطلسمات والغرائب . وقال إن حلب من الأرض المقدسة ، وإن أهل حلب فى رباط وجهاد ، وإنها كانت باب الغزو والجهاد ، ومجمع الجيوش والأجناد ، وذكر صفة مدينة حلب وعماراتها وأبوابها وما كانت عليه أولا وما تغير منها وما بقى . ثم ذكر فصولا أخرى فى فضلها وفضل قنسرين وفصولا فى أنطاكية ، ومنبج ، ورصافة هشام وخناصرة ، وبالس ، وحياد بنى القعقاع ، ومعرة النعمان — نسبة للنعمان بن بشير — ومعرة مصرين ، وحاضر قنسرين وسرين وكفر طاب ، وأفامية ، وشيزر ، وحماة ، وبغراس (بيلان اليوم) والمصيصة ، وعين زربة ، وأذنة ، والكنيسة السوداء ، وطرسوس ، وذكر كيفية النفير بطرسوس وكيف كان يجرى أمره ، وعقد فصلاً لفضل طرسوس والحصون المجاورة لها وللمصيصة وانطاكية ، وذكر حصن ثابت بن نصر وهو الذى كان مشهوراً قبل الثغور وبنائها ، وذكر حصن عُجَيْف ، وحصن شاكر ، وحصن الجوزات ، وعرض لتل جبير ، وأولاس ويقال له حصن الزهاد ، وذكر الهارونية ، وحصن الأسكندرونة ، والتينات ، والثقب ، وسيسيه ويقال لها سيس وهى مدينة قريبة من عين زربة إلى غيره من الحصون ، وذكر مرعش والحدث المعروفة بالحدث الحمراء ، وزبطرة ، وحصن منصور ، ومكلية ، وسُمَيْساط ، وريحان ، ودلوك ، وقورص وكيسوم . فاستدللنا بهذا أن عمل حلب كان يتناول قسماً مهماً من الجزيرة ومعظم بلاد قاليقلا ، وبعض بلاد آسيا الصغرى (ويقع الكتاب فى ٥١٨ صفحة وعدد أوراقه ١٩٦)

محمد كرد على